# غياب الأيديولوجية في زمن الاستضعاف

**ربيع الحافظ**

كاتب من العراق مقيم في بريطانيا

## ملخص البحث

كانت البؤر السياسية الرئيسية العالمية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في حالة من اللاستقرار السياسي والشيخوخة. كما أن اللاتوافق السياسي والأيديولوجي السائد والتنافس الاقتصادي أدخلا العالم طوراً من التوتر قاد إلى حربين عالميتين، كان من تداعياتهما احتجاب نُظُم سياسية لحضارات كبرى، في طليعتها النظام السياسي للحضارة العربية الإسلامية الذي اختفى من الخارطة السياسية بشكل كامل تاركاً وراءه رقعة هائلة من الجغرافية السياسية المكشوفة .

وقد توغلت أمريكا في جغرافية هذا النظام السياسي الفاقد للمناعة؛ لإعادة تكوينه وإقامة ما تسميه «الشرق الأوسط الكبير»، والعراق هو محطتها الأولى فيه. والمشهد العراقي يحدث على مفترق طرق رئيسي لعمالقة الأمم والكتل السياسية التي ترقب عثرة العملاق الأمريكي في حلبة العراق .

لقد أيقظ الاحتلال والمقاومة معاً الإحساس بالهوية، وأزالا الحدود القُطْرِيَّة التي كانت نُدُباً ثقافية وسياسية شبه مزمنة في العقل العربي المعاصر لتصبح المقاومة هي الأخرى متعددة الجنسيات مثل القوات الغازية.

إن أهل السنة بحاجة إلى سياق أيديولوجي تنتظم فيه مكونات قضيتهم وفصول تضحياتهم، وترتسم من خلاله الصورة الكاملة للحدث . إن المشوار الثقافي عند الفرد السني وطموحاته السياسية تنتهي عند الغلاف الخلفي لكتاب التربية الوطنية الذي تقرره مناهج الدولة في المدارس والمعاهد.

وهذه العلاقة بين الشخصية السنية ومؤسسات الدولة صيد سهل لخصوم أهل السنة، المشكلة هي أن الدولة المعاصرة تغيرت وهذه الشخصية استمرت.

إن سيكولوجية الحكم المزمنة لدى هذه الشخصية لازالت تتحكم بها في زمن الاستضعاف، فهي لم تألف العمل المعارض، ولا تملك خطاً ثانياً من مؤسسات الاكتفاء الذاتي مما يوازي مؤسسات الدولة، لذا نرى الاضطراب والحيرة يدبان في سلوكها لحظة غياب الدولة.

وقد يطول الاحتلال وقد يقصر، ولكن الاحتراب الثقافي الداخلي يبقى بوابة المحتل متى ما شاء الدخول، وطوق النجاة إذا ما اضطر إلى الخروج يوماً.

الذين يُذْبَحُونَ اليوم على مذبح المارينز أمام وفاق قسري إلى حين انجلاء هذه الغمة، وإلا فالفناء السياسي هو خيارهم الآخر، إلا من أراد منهم الغرق الاختياري في المستنقع الأمريكي .

## أفكار ومقتطفات

* كان انقلاب شعوب أوروبا وآسيا في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على نظم سياسية مزمنة تحت طائل العامل المعاشي والظلم أو الاستعلاء العرقي هو أحدث ما في الذاكرة الإنسانية عن تحولات أيديولوجية كبيرة على نطاق أمم الأرض.

* إن اللاتوافق السياسي والأيديولوجي السائد والتنافس الاقتصادي أدخلا العالم طوراً من التوتر قاد إلى حربين عالميتين.

* السيناريو الحاضر يمكن إيجازه: بأن الخطر عاد إلى المنطقة من جديد، وأن الدور السياسي العربي لا زال معطوبًا، والشعوب التي سدت مسد العرب في الماضي هجرت الميدان.

* كانت أزمات القرنين الماضيين محضناً إن لم تكن رحماً للأيديولوجيات التي قُيض لها من يحملها ويترجمها إلى شعارات تتقبلها عقول الناس.

* التاريخ اليوم يُصْنع في شوارع الفلوجة وبغداد وتكريت وسامراء والموصل وبعقوبة والأنبار على الوجه الذي يتوق إليه أي قائد جماهيري في أي شعب من الشعوب.

* لقد أيقظ الاحتلال والمقاومة معاً الإحساس بالهوية، وبعثا روح العزيمة، وأزالا الحدود القُطْرِيَّة التي كانت نُدُباً ثقافية وسياسية شبه مزمنة في العقل العربي المعاصر؛ لتصبح المقاومة هي الأخرى متعددة الجنسيات مثل القوات الغازية.

* أصبحت الفلوجة اسماً يضاف إلى قائمة الأمراض النفسية للأمة الأمريكية.

* أهل السنة بحاجة إلى سياق أيديولوجي تنتظم فيه مكونات قضيتهم وفصول تضحياتهم، وترتسم من خلاله الصورة الكاملة للحدث بخلفياته ومراميه.

* لقد كانت معادلة أو (تفاهم) العلماء ـ الأمراء ( العلماء أهل النظرية والأمراء أو الساسة أهل التنفيذ) هي المناخ السياسي الذي يُصْنع فيه القرار السياسي في نُظُم الحضارة العربية الإسلامية، وكانت حجر الزاوية في تماسك نظامها السياسي وجبهتها الداخلية.

* الدولة العراقية استطاعت إيجاد شخصية عراقية تعتز بوطنها، وإن ملامح هذه الشخصية غَطَّتْ إلى حد ما على الاعتبارات الأخرى التي يزخر بها كل مجتمع فسيفسائي كالمجتمع العراقي.

* خسر أهل السنة بسبب أيديولوجية استُنْبطت في ظروف مختلفة قطاعاً واسعاً من شارعهم ولا زالوا يفعلون.

* الذين يُذْبَحُونَ اليوم على مذبح المارينز أمام وفاق قسري إلى حين انجلاء هذه الغمة، وإلا فالفناء السياسي هو خيارهم الآخر، إلا من أراد منهم الغرق الاختياري في المستنقع الأمريكي.

* نحـن أكثـر حاجة من الغرب إلى معاهد فكر تُعَمِّق مفاهيم حضارتنـا، وَتُؤَطِّر أيديولوجيتنا، وترمم العلاقة بين طرفي معادلتنا، وتعيد صياغة قاموسنا السياسي بلغة سهلة يفهمها رجل الشارع.

* الأزمات محطات مهمة في تاريخ الشعوب لا تُفَوّت، فيها تُرَاجع القناعات وتُصْنَع المعجزات، وفيها يُعَاد رسم الشخصية الجماعية للمجتمع، وهي فرص نادرة الحدوث.

# غياب الأيديولوجية في زمن الاستضعاف

**مقدمة**:

طال الأمد على آخر تحول أيديولوجي كبير يشهده العالم، فانقلاب شعوب أوربا وآسيا في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على نظم سياسية مزمنة تحت طائل العامل المعاشي والظلم أو الاستعلاء العِرْقي هو أحدث ما في الذاكرة الإنسانية عن تحولات أيديولوجية كبيرة على نطاق أمم الأرض.

كانت البؤر السياسية الرئيسية العالمية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين في حالة من اللاستقرار السياسي والشيخوخة، وكانت المناخات السياسية تنذر بأن تحولات كبرى قد أزف أوانها، فالأحوال المعاشية المتردية في روسيا القيصرية في مقابل الفكر الشيوعي الوليد يومئذ، وتراجعات الدولة العثمانية المتعَبة أصلاً في حروب البلقان، ثم تحالفها الهش مع ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا في أوربا، ووصول النازية إلى ألمانيا، والتخلخل السياسي في منطقة نفوذ الإمبراطورية اليابانية في جنوب شرق آسيا، ثم أمريكا التي لم تكن قد حزمت أمرها بعدُ حول علاقتها مع العالم الخارجي، هذه كلها كانت إرهاصات لتحول كبير ما سيكتنف العالم.

كما أن اللاتوافق السياسي والأيديولوجي السائد والتنافس الاقتصادي أدخلا العالم طوراً من التوتر قاد إلى حربين عالميتين، كان من تداعياتهما قيام إمبراطوريات جديدة، منها ما جَسَّدَ فكراً آنياً عابراً كالشيوعية والنازية، ومنها ما ورث حضارات قائمة كأمريكا بالنسبة لأوروبا.

كما كان من تداعيات الحربين احتجاب نظم سياسية لحضارات كبرى، في طليعتها النظام السياسي للحضارة العربية الإسلامية، الذي اختفى من الخارطة السياسية بشكل كامل؛ وللمرة الأولى منذ خروجه على العالم كلاعب سياسي رئيسي قبل أربعة عشر قرنًا، تاركاً وراءه رقعة هائلة من الجغرافية السياسية المكشوفة من دون غطاء سياسي ذاتي. فقد كانت الحقبة العثمانية الختامية أقرب للحراسة العسكرية لرقعة شعوب الحضارة العربية الإسلامية، وأفضى انتهاؤها إلى انكشاف هذه الرقعة على الأصعدة جميعها؛ الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

من جهة ثانية، فقد طال الأمد على آخر دور طليعي للعرب في النظم السياسية التي استوعبت الحضارة العربية الإسلامية، حيث تعتبر حقبة الخليفة المعتصم ولجوؤه إلى الأتراك لتحجيم النفوذ الفارسي المتنامي في الدولة العباسية منعطفاً وبداية النهاية للطور العربي في النظام السياسي للحضارة العربية الإسلامية. لكن هذا الدور سَدَّ مَسَدَّهُ ـ أو حَدَّ من تداعياته ـ في أحايين متعددة عالميةُ الحضارة العربية الإسلامية، وتَعَاقُبُ شعوبها من سلاجقة وأكراد ومماليك ثم أتراك عثمانيين على انتشال نظامها السياسي في مراحل الضعف وتصريف شؤونها، حدث ذلك يوم كانت هذه الشعوب أعجمية النسب ولكنها عربية اللسان والثقافة وسنية المعتقد سياسيًا.

إنّ المنطقة تواجه من جديد زلازل سياسية على أعلى الدرجات في مقياس الزلازل، في ظرف يقترن

فيه – هذه المرة – استمرار الغياب السياسي العربي، مع خروج اختياري لتلك الشعوب من المعادلة السياسية للحضارة العربية الإسلامية تحت طائل النزعة القومية التي اجتاحت شعوب الأرض في القرنين الأخيرين، فعادت تلك الشعوب أعجمية النسب واللسان والثقافة. يضاف إلى ذلك المشهد التراجع الكبير للدور الفكري العربي الذي كان رديفاً بالغ الأهمية – وإن من مواقع سياسية خلفية – للنظم الحاكمة غير العربية، ووازعاً لكثير من قراراتها السياسية المفصلية في مسار الحضارة.

السيناريو الحاضر يمكن إيجازه: بأن الخطر عاد إلى المنطقة من جديد، وأن الدور السياسي العربي لا زال معطوبًا، والشعوب التي سدت مسد العرب في الماضي هجرت الميدان، وهي ليست بأحسن حال منهم، والحصيلة هي ما بات يطلق عليه «النظام السياسي العربي المنهار»، وقد توغلت أمريكا في جغرافية هذا النظام السياسي الفاقد للمناعة السياسية والثقافية، لإعادة تكوينه وإقامة ما تسميه «الشرق الأوسط الكبير»، والعراق هو محطتها الأولى فيه.

لا يُخفي نزلاء هذه الجغرافيا –بدءاً من الأقليات السياسية والدينية والطائفية وانتهاءً بإسرائيل– أن سيناريوهات كهذه هي فرص نادرة الحدوث في عمر الأمم؛ لإعادة إحياء مشاريع مؤجلة أو ملغاة أو مستعصية، وقد نُبشت الأراشيف ولم يعد مستهجناً عند أصحاب المشاريع فتح ملفات علاها الغبار منذ عقود طويلة، ولا يعدّ محرماً أو عيباً اللجوء إلى أية وسيلة لبلوغ الغاية.

لم يألُ الظهير الإعلامي لتلك المشاريع جهداً في وضع الحدث اليومي في المشهد العراقي ضمن سياق لا تخطؤه الإمكانيات الفكرية العادية لرجل الشارع العادي، سواءً كان هذا الرجل في نيويورك حيث الحرب على الإرهاب، أو في إسرائيل حيث فرحة بلوغ الفرات ( الحدود الشرقية لدولة الميعاد) وعبوره إلى بابل حيث منفى الأجداد، أو في «كردستان الجنوبية» المقتطعة من كردستان الكبرى، أو من مناطق المقابر الجماعية التي حَفَرتْ أخاديدها «الأقلية السنية» التي «ظاهرت» صدام، أو في المثلث السني الذي ما حمل السلاح وشن المقاومة إلا عند خسارته لمواقعه السياسية التاريخية.»

كل شيء عند نزلاء الجغرافيا «وزوارها» (الأمريكان) يسير وفق سياق.

المشهد العراقي غني بمعطياته وانعطافاته القتالية والوطنية التي يراقبها باهتمام شديد العدو قبل الصديق، وهو مشهد يحدث على مفترق طرق رئيسي لعمالقة الأمم والكتل السياسية التي ترقب بصبر نافد عثرة العملاق الأمريكي المتغطرس في حلبة العراق التي باتت محكاً سيكرّم فيه العملاق أو يهان.

الأمور مجتمعة ( الاحتلال + مشاريع النزلاء + المقاومة بأشكالها المختلفة + الهشاشة السياسية في المنطقة + والتنافس السياسي العالمي في المنطقة) تشكل وصفة تحول كبير قابل للحدوث جداً في أحد اتجاهين متعاكسين.

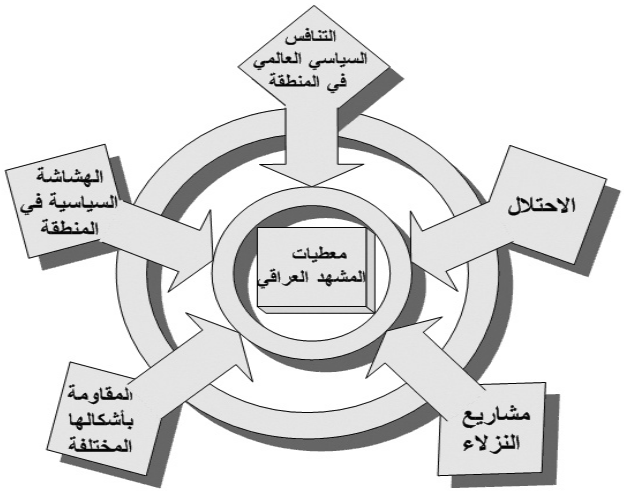


**معطيات المشهد العراقي**

من الواضح جلياً أن السياق الأيديولوجي مُؤَمَّن بشكل جيد لأحد الاتجاهين، لكنه يغيب بشكل أكثر جلاء عن الاتجاه الآخر. فالأخبار التي تتوالى من العراق عبر قنوات لا يفترض أن تكون مناوئة، هذه الأخبار -على أهميتها ومراميها الاستراتيجية- لا تتعدى في أحسن الأحوال كونها عرضاً نزيهاً لشريط أخبار لا تقع ضمن سياق، ويمكن وصفها إلى حد كبير بـ «كومة» مفردات؛ منها: «المثلث السني، الحوزة الصامتة، أهل السنة الوحيدون من غير قيادة، المقاومة ليس لها ذراع سياسي، لولا طهران لما سقطت بغداد، ولولاها لما سقطت كابول أيضًا، الموساد يصطاد العلماء العراقيين، يهود يبتاعون عقارات في العراق، المقاومة تحارب على جبهتين أمريكية ومحلية، غزو ديموغرافي إيراني للعراق، حرق دور التراث"، وغيرها من المفردات التي تثير فضول السامع العادي بشكل كبير، لكنها لا تنبهه إلى ما تعنيه مجتمعة.

كان القاسم المشترك في تحولات القرن التاسع عشر والقرن العشرين هو ظهور قادة ملهمين سلبوا لُبّ الشارع السياسي المتعطش للرؤى الثاقبة، وَهَيَّجُوا المشاعر وأوجدوا القناعات فصنعوا التغيير. بعبارة ثانية؛ لقد كانت أزمات القرنين الماضيين محضناً إن لم تكن رحماً للأيديولوجيات التي قُيِّضَ لها من يحملها ويترجمها إلى شعارات تتقبلها عقول الناس.

لم يكن الحال في نظم حضارتنا السياسية عبر التاريخ على غير هذه الشاكلة، فقد ارتبطت محطات الحضارة بأسماء أعلام بعثوا الأمل في النفوس وقادوا مجتمعاتهم وتركوا بصمات غائرة على محيا التاريخ، وهم إلى هذا اليوم مدارس يلتقي عليها المفكرون.

ما نشهده في ساحتنا اليوم هو صورة مقلوبة لسنن التحول في حياة الأمم؛ شارع يبحث عن قيادة وليس العكس، عامَّة تبحث عن نخبة وليس العكس. التاريخ اليوم يُصْنَعُ في شوارع الفلوجة وبغداد وتكريت وسامراء والموصل وبعقوبة والأنبار على الوجه الذي يتوق إليه أي قائد جماهيري في أي شعب من الشعوب.

عام ونيف من التغطية الإعلامية والإخبارية التي شهد لها العدو قبل الصديق بالشجاعة والسبق المهني، لكنها تغطية خارج السياق، كحبة الماس الثمينة التي تبحث عن عقد تنتظم فيه لتأخذ شكلها الجمالي النهائي، ولو خرجت أمريكا من العراق غداً فسيتحول شريط الأخبار إلى تغطية أحداث الغد ونجد أنفسنا أمام كومة إخبارية جديدة.

عام ونيف على الاحتلال كافٍ وزيادة لمجاراة العواطف والانفعالات الإنسانية التي لا مناص منها في الأزمات، فالعواطف مهما جاشت لن تدوم، بل ستخفُت، ما يدوم هو الحقائق، فهي التي تُبْقي النبض في العروق، وتشحذ الهمم كلما اقتضت الحاجة.

لقد أظهرت أحداث عام ونصف وبلون فاقع هشاشة الأداء السياسي عند أهل السنة وتذبذباته، وبدائية أدواته، وحسبنا أن أحدث معجم سياسي في حوزة المؤسسة السياسية للحضارة العربية الإسلامية يتناول مسألة خيانة طابور خامس هو نسخة سنة ٦٥٦هـ، مع أن سقوط بغداد في ذلك العام ليس هو الأقرب زمنياً لسقوطها في ٩ نيسان ٢٠٠٣م، بل سقوطها الثاني في ١٩١٧م على أيدي الإنكليز هو الأقرب، ولا زال تصوير دواوين ابن كثير لتدمير بغداد وحرق دور تراثها بعد تسعة قرون على كتابتها هو أحدث ما في أراشيفنا عن مؤامرة تدمير حضارة بتنسيق بين عدو خارجي وطابور محلي وهدم دولة على رؤوس ساكنيها.

المشكلة لا تُعْزَى إلى ندرة الْعَلَاقِمَة في هذا العصر، ولكن السقوط الأول كان عسكري الطبيعة، وبقي هناك من يرصد الحدث بمنظار الحضارة ويضع الأمور في سياقها، في حين خلت مدونات التاريخ المعاصر ـ أو كادت ـ من وثائق وحقائق

سـقوط بغداد الثاني، رغم التشابه الكبير في الحالات الثلاث، وامتلأت بالعموميات والتزييف، ولم توّرث أجيال اليوم مادة تسترشد بها أو تقتبس منها شعاراتها ونعوتها فعادت إلى أراشيف القرن السابع الهجري.

إن الحقائق المذهلة التي تتكشـف اليوم عن فصول التاريخ القريب قلبت قناعـات ظنها الكثيرون نهائية، لكـن هذه الحقائق ـ علـى أهميتها ـ تقـرأ اليوم كمادة أرشـيفية منتهية الصلاحية، ولو أنهـا دُوِّنَتْ في حينها بنمـط آخـر لكنـا اليوم أمـام صـورة مغايـرة للتاريخ المعاصـر، ولأغنـى قامـوس ١٩١٧م بشـخصياته وبيوتاتـه المعاصـرة عن قامـوس ٦٥٦هـ، ولكانت أجيـال اليوم أقـل سـطحية وحيرة وأكثـر تأهباً لما حـدث اليوم أو لما سيحدث في المستقبل.

لقـد أيقـظ الاحتـلال والمقاومة معاً الإحسـاس بالهوية، وبعثا روح العزيمـة، وأزالا الحـدود القُطْرِيَّـة التي كانت نُدُباً ثقافية وسياسية شَبه مزمنة فـي العقل العربـي المعاصر لتصبـح المقاومـة هـي الأخـرى متعـددة الجنسـيات مثـل القـوات الغازيـة، وكانـت العثـرة الحقيقية الأولـى فـي مسـار الإمبراطوريـة الأمريكية.

العراقيـون ليسـوا وحدهـم في الميـدان، بـل معهم عـرب الجوار وعـرب الأقاصي والمسـلمون، وكل شعوب الأرض التي اكتوت بظلم وجشـع ظاهرة «دولة الشـركات»، كلٌّ يعبر عن حَنَقه بطريقتـه الخاصة، ولو بارتـداء «فانيلة» تحمل اسـم العراق، أو رفع علم العراق في مناسبة رياضية.

ليـس المقصـود عند هـؤلاء العراق ذاتـه، ولا يهم العراقييـن رفعُ العلم أو الفانيلـة، ولكن قضية العراق أصبحـت بصيص أمل الفلسـطيني فـي مخيم جنين، والسـوداني فـي دارفـور، والأفغانـي فـي كابـول، والأرجنتيني الذي سـلبه المـزارع الأمريكي مزرعته، والفيتنامـي الـذي حولـت أسـلحة الدمـار الشـامل الأمريكية أرضه إلى أرض جدباء لا تنبت، وأصبحت الفلوجـة اسـماً يضاف إلـى قائمة الأمراض النفسـية «للأمة الأمريكية».

أهل السنة بحاجة إلى سياق أيديولوجي تنتظم فيه مكونـات قضيتهم وفصول تضحياتهم، وترتسـم من خلاله الصـورة الكاملـة للحدث بخلفياتـه ومراميه، سـياق يتسـق مـع الماضـي فيحتشـد الماضـي وراء ظهورهم، ويتسـع للحاضر فَيَنْشَـدُّ أحـرار العالم إلى قضيتهم.

**قضيـة العـراق أصبحت بصيص أمل الفلسطيني في مخيم جنين، والسـوداني في دارفـور، والأفغـاني في كـابـول، والأرجنتيني الذي سلبه الـمـزارع الأمـريـكي مزرعته، والفيتنامي الـذي حولت أسلحة الدمار الشامل الأمريكية أرضـه إلـى أرض جدباء لا تنبت**

لابـد مـن ولادة أيديولوجيـة في منـاخ أزمة كهـذه، تحاكي كل أطيـاف المجتمـع التـي يُرْعبهـا المشـروع الصهيـو ـ أمريكـي، ولابد من المسـارعة إلـى تدوين أحـداث الحاضـر، وإعـادة كتابة أحداث الماضـي القريب -الذي تُرِكَ لأقلام شُعُوبية- بحبر جديد، وإعـادة الثقة إلى الشـارع السـني بوطنيـة آبائه وأجـداده وأدوارهم مـع الإنكليز التي لـم تختلف عما يشاهدونه اليوم.

نقول هذا خشـيةَ ذهاب حقائق وتضحيـات مقاومـة مُثَلثهـم أو مسـتطيلهم أدراج الريـح، وضياعها بيـن ثنايا الكتب غير السياسـية كمـا حصل إبان الاحتـلال البريطاني، أو أن تخطـف المشـهد زوابـع لا تلبـث أن تنتهي أو تقمع ذاتها.

لقـد كانـت معادلـة أو «تفاهم» العلمـاء - الأمراء (العلماء أهل النظرية والأمراء أو الساسة أهل التنفيذ) هي المناخ السياسي الذي يُصنع فيه القرار السياسي في نُظُم الحضارة العربية الإسلامية، وكانت حجر الزاوية في تماسك نظامها السياسي وجبهتها الداخلية.

ولـم يعـرف العالم عن العـرب قبل هـذه المعادلة أو هـذا «التفاهم» سـمة الأممية، كما أنه لـم يعثر لها على أثـر بعد اختـلال هـذه المعادلة، بـل إن العرب بغير الرسـالة السـماوية التي تممت مكارم الأخلاق عندهـم، وخلقـت أيديولوجية أعـادت صياغة نظام حياتهـم هـم أقـل أقـوام الأرض قـدرة علـى إدامـة المدنيـات والحضـارات، وبغيره يعـودون إلى ثقافة داحس والغبراء التي تتخذ اليوم شـكل فيشت الديبل والبوليساريو، والكويت وحلايب وغيرها.

لكنه لن يشـق علـى الناظر إلى السـاحة السياسـية اليـوم، وفي العالـم العربـي على وجـه الخصوص، معرفـة حجم الضـرر الذي أصـاب هـذا «التفاهم»، في ظل النظام السياسـي المعاصـر، وفي ظل الحرب الثقافيـة الأهلية التـي اجتاحت المجتمعـات العربية منـذ مطلع القـرن الماضي، ومزقت نسـيج المجتمع وأنهكـت الشـعوب والحكومـات معـاً واسـتنزفت الثروات، وكانت بامتياز سمة القرن الماضي.

هـذه الحرب هي التي تطـورت وتعقدت فيما بعد، وشـهدت اسـتنجاد أطـراف فيهـا بالخبـرات الأمنية الخارجية لكسب المعركة الثقافية، وانتهت باستضافة الجيوش الأجنبية على أراضينا بشكل رسمي.

كان دخول المشروع القومي إلى المنطقة إيذاناً ببدء الحـرب الأهلية، فقد جاء متأسـياً بالمثـال الأوروبي الـذي أوصل أوروبـا إلى جـادة الرخاء والاسـتقرار التـي هـي فيه. الفـارق هـو أن المثـال الأوروبي أتى فـي وقت كانت قد حسـمت فيه القـارة -ومنذ وقت مبكر- علاقتها مع كنائسـها التي كانت سبباً في شقاء وهجـرة الملايين من الأوروبيين وفي تخلفهم أيضًا. في حيـن اقتُبس المشـروع القومي العربـي في زمان كانت تؤوب الشـعوب فيه إلى الدين تحسباً من بديل سياسـي مجهول في ظل جيش احتلال أجنبي وأطقم ثقافيـة مرافقة، ومكان من العالم يُعتبـر فيه الدين وما يتفرع عنه قاعدة لفهم السياسة والتاريخ، والنتيجة هي إرهاصات حرب ثقافية أهلية.

كان الديـن فـي تلـك اللحظـة، ممثلاً بالمسـاجد والعلمـاء، خـط الدفـاع الأول فـي وجـه القـادم المجهـول، وكان هو أيديولوجية المقاومة في أبسـط أشكالها، قبل أن تنشأ مدارس سياسية تترجم الرفض الجماهيري إلى شـعارات وأدبيات، وتصوغ مفاهيم الحضارة العربية الإسلامية بلغة معاصرة.

وبذلك تكون المنطقة قد تجاذبتها عموميات الفكرة القومية الليبرالية المسلوبة -إن لم نقل المحاربة- لشق الشخصية الحضارية العربية الإسلامية، والتي فتحت الميدان السياسـي لكل مـن نطق العربيـة، ومعارضة سياسية إسلامية مبتدئة فاقدة للخبرة السياسية، والتي فعلت الشيء نفسـه، ولكن لكل من رفع لافتة الدين، فحققت أطياف سياسـية شروط الانخراط السهلة في النمطين الفضفاضين.

ومـن بيـن المتفوقيـن في اجتيـاز شـروط النضال القومـي العربـي بامتياز «صفويون» فـرس (مصطلح شـيعي عربي) ولكن بأنسـاب عربية منتحلة، واجتاز متدينـون منهم اختبـار منـح الثقة عند الإسـلاميين، وظلت تلك الثقة مسـبغة عليهم حتى لحظة وصولهم علـى ظهور الدبابـات الأمريكيـة إلى أسـوار بغداد، وسـط ذهول كثير من القوميين والإسلاميين على حد سـواء، الذين أنطقهم هول الصدمة بعبارة: كنا نظنهم مناضلين!

ليـس من شـطط الـكلام القـول أن هذه السـذاجة الأيديولوجيـة عنـد القومييـن والإسـلاميين التي لم تسـتدرك هي التي أسـقطت العـراق بيـد الصفويين الجدد في صفـر ١٤٢٣هـ / نيسـان ٢٠٠٣م وقدمته علـى طبق من فضة، وقد تسـببت السـذاجة ذاتها في سقوط دول أخرى في المنطقة ولكن من دون ضجة.

الأحاديـث الجريئـة التـي شـقت طريقهـا أخيـراً إلـى الهـواء الطلـق بعنـاء واسـتحياء شـديدين، عن تواطـؤ الحـوزة مـع المحتـل الأمريكـي بعـد عـام ونصـف على وقـوع الاحتلال لا زالـت ناقصة، ولم تخـرج عـن دائـرة العموميـات، فالتشـيع الصفـوي

-علاوة على الاختلافات المعروفة بين أهل السنة والشيعة- مدرسة سياسية راسخة على الخريطة السياسية العالمية، لها أجندتها السياسية التي يفهمها الأوروبيون ويفهمها الروس وتفهمها الهند، منذ الانقلاب غير الأبيض الذي حمل الصفويين إلى الحكم عام ٩٠٠هـ، وأخرج إيران من دائرة الحضارة العربية الإسلامية، لتكون الخروف الأسود في القطيع الأبيض، ويصبح خلافها السياسي مع محيطها الإقليمي ورقة ثمينة لا تفرط بها القوى الدولية في توازناتها الإقليمية والدولية.

ولم تتغير الأجندة الصفوية في إيران بتغير السلالات المتعاقبة على حكمها، ابتداءً بالصفويين أنفسهم، فالقاجاريين، فالبهلويين وأخيراً الحوزة.

وقد التقت مصالح إيران «الحوزة» مع مصالح قوى عالمية على حساب جاراتها المسلمة ثلاث مرات خلال عقدين، تارة مع الشيوعية وتارتين مع المسيحية المتصهينة التي يعتنقها نزلاء البيت الأبيض، وهذا الذي يحدث في العراق تكرار لتلك المصالح كما لا ينفي ذلك المسؤولون الإيرانيون، وهي مصالح تُغَلِّبَها طهران كل مرة على تبعات الحروب المعروفة سلفاً من انتهاكات الحرمات والأعراض.

لا جدال في أن نمط الحياة السياسية في الدولة العراقية الحديثة، والأطقم الثقافية المبكرة للدولة من السنة العرب والأكراد من بقايا الدولة العثمانية له علاقة مباشرة بالخلاف الصفوي العثماني، وحساسية العثمانيين من الشيعة الذين قاطعوا مؤسسات الدولة العثمانية والتعليم الحكومي وانصرفوا إلى أعمال التجارة، ومن أراد التعليم منهم طلبه في إيران.

ولكن في الوقت الذي غاب فيه الحضور العثماني عن العراق بجميع أشكاله، وخرج من اهتمامات الدولة التركية الوريثة شؤون الشعوب التي شاركتها نظامها السياسي أربعة قرون، وتخليها عن أدوار الدولة الإقليمية الكبرى، واكتفاؤها بشؤون التركمان العراقيين، ثم ارتفاع جدر ثقافية عالية تعزل أجيال اليوم عن شركاء الأمس بسبب أدبيات ومناهج تعليم الدولة القومية التي اعتبرت الحقبة العثمانية حقبة احتلال أجنبي، مقابل هذا كله يستمر حضور الشريك الفارسي بأشكاله المختلفة؛ الديمغرافية والفقهية والمالية والسياسية، وظلت إيران على الدوام الرقم الحاضر الغائب في المعادلة الداخلية العراقية، والعمق الاستراتيجي والروحي للحوزة ولشيعة العراق، وهو حضور يطوِّر الخلاف السني الشيعي المحلي، ويقلِّل من فرص الوفاق.

وربما ظهرت آثار هذا الحضور بادية في موقف الحوزة الصامتة ـ مصطلح شيعي عربي ـ التي يهمين عليها التيار الفارسي في صمتها من تدمير الفلوجة وقتل أناسها العزل، في مقابل السلوك التكافلي الذي أبداه أهل السنة والتيارات الشعبية الشيعية العربية نحو بعضهم أثناء أحداث الفلوجة الأولى وأحداث النجف. وظهرت هذه الآثار في فتوى المرجعية العظمى في الحوزة - وهو إيراني لا يحمل الجنسية العراقية - بدخول النار لمن لا يشارك في العملية السياسية التي يريدها المحتل الأمريكي.

**وقد التقت مصالح إيران الحوزة مع مصالح قوى عالمية على حساب جاراتها المسلمة ثلاث مرات خلال عقدين، تارة مع الشيوعية وتارتين مع المسيحية المتصهينة التي يعتنقها نزلاء البيت الأبيض**

ليس مجانبة للصواب القول: إن الدولة العراقية استطاعت إيجاد شخصية عراقية تعتز بوطنها، وأن ملامح هذه الشخصية غَطَّتْ إلى حد ما على الاعتبارات الأخرى التي يزخر بها كل مجتمع فسيفسائي كالمجتمع العراقي.

ومن غير مجانبة الصواب أيضاً القول: إن هذه

الشخصية بمفردات الوحدة الوطنية، والوحدة العربية والاستعلاء والقوة وتحرير فلسطين وغيرها التي احتوتها كانت كل ما يملكه الفرد السني في العراق بشكل عام من مؤنة أيديولوجية وطموح.

ليس بإمكان أحد الادعاء بأن العراقيين الذين يظهرون على الفضائيات بشعارات أقصاها عودة «الأمان والكهرباء» هم من أهل السنة فقط، فرجل الشارع السني العادي لا يختلف في حجم إنهاكه وقلقه عن أخيه الشيعي، ولكن كانت هناك ولا تزال شعارات أيديولوجية ناضجة برزت بمجرد السقوط، مثل «المرجعية قائدتنا»، «فيدرالية الجنوب»، «كردستان الكبرى»، وهي ثقافات لا يتلقاها التلميذ الشيعي أو الكردي في ساعات النهار على مقعد الدراسة إلى جوار زميله السني.

قد لا نبالغ إذا قلنا: إن المشوار الثقافي عند الفرد السني وطموحاته السياسية تنتهي عند الغلاف الخلفي لكتاب التربية الوطنية الذي تقرره مناهج الدولة في المدارس والمعاهد وحتى في الدوائر الحكومية.

هذه العلاقة بين الشخصية السنية ومؤسسات الدولة صيد سهل لخصوم أهل السنة، لكن الناظر في التاريخ يرى أن نشوء هذه الشخصية كان مُصَاحباً لنشأة دولة الحضارة العربية الإسلامية الأولى، بل إنهما أوجدا بعضهما، لتبقى هذه الشخصية لصيقة بالدولة ومؤسساتها الفقهية والفكرية والحضارية على مر العهود، وفرق كبير بين أن تكون نقطة البداية من الحكم وبين أن تكون المعارضة هي الأصل.

المشكلة هي أن الدولة المعاصرة تغيرت والشخصية هذه استمرت، فما كان هو الأسلم في حساباتها يوم صفين ووصول الأمويين وفتن الفلسفة في خلافة بني العباس والعلاقة مع الأقليات المذهبية بقي هو الأسلم. الأسوء هو عندما تُحْسَبُ هذه الأنظمة على أهل السنة ويُؤْخَذُونَ بجريرتها. وقد خسر أهل السنة بسبب أيديولوجية استنبطت في ظروف مختلفة قطاعاً واسعاً من شارعهم ولا زالوا يفعلون.

**إن المشوار الثقافي عند الفرد السني وطموحاته السياسية تنتهي عند الغلاف الخلفي لكتاب التربية الوطنية الذي تقرره مناهج الدولة في المدارس والمعاهد وحتى في الدوائر الحكومية**

**يمكن القول:** إن سيكولوجية الحكم المزمنة لدى هذه الشخصية لازالت تتحكم بها في زمن الاستضعاف، فهي لم تألف العمل المعارض، ولا تملك خطاً ثانياً من مؤسسات الاكتفاء الذاتي المالي والإعلامي والاجتماعي مما يوازي مؤسسات الدولة، فتفعله في الحالات الاستثنائية وتدير به شؤون «شارعها» كما تفعل لدى الأقليات، لذا نرى الاضطراب والحيرة يدبان في سلوكها لحظة غياب الدولة.

من أين تبدأ هذه الشخصية خطة إعادة التأهيل؟ سؤال كبير. ولكن ما من شك أن طريقة التفكير هي إحدى العثرات المبكرة على الطريق، فلا زالت هذه الشخصية تفكر بعقلية من يحكم وليس بطريقة من اجتمعت عليه الأحزاب، وفي الغرب يدخل أفراد الحزب الحاكم الذي خسر الانتخابات في «كورس» لنقلهم من جو سيكولوجي إلى آخر وإعادة تكييف الشخصية بما ينسجم ومهامها الجديدة، فكيف بمن أمضى تاريخه كله في موقع الحكم ولم يجرب المعارضة؟ وليس في فقهه السياسي الذي استنبط في ظروف التمكن الكثير الذي يرجع إليه، أو في تاريخه من الفصول المشابهة التي يمكن الاقتباس منها؟

ما استيقظ عليه أهل السنة أمام مشهد سقوط بغداد، وبعضهم لم يستيقظ حتى هذه اللحظة، أن الحدث الكبير ألغى عملتهم الأيديولوجية في سوق صرف العملات، فلا العراق عاد عربيًا، ولا وَحْدَويًّا، ولا عراقاً موحداً بالضرورة. بضاعة خرج موسمها!

ومما استيقظوا عليه كذلك عزلهم عن عمقهم العربي المؤازر بطوق من النظم السياسية العربية التي حولت بلدانها إلى قاعدة لانطلاق جيوش الاحتلال، أو زنزانة يُجْلَب إليها رجال المقاومة العراقية للاستجواب أو التعذيب، أو مدرسة لتدريب قوى الأمن العراقية الجديدة، ومنهم من رفع ستاراً ترابياً على طول الحدود لمنع تسلل «المقاتلين الأجانب»، ومنع آخرون الدعاء في العلن لضحايا دمار المدن العراقية!

أمر آخر استيقظ عليه أهل السنة، وهو أن خصمهم وضعهم في خانة واحدة، إسلامييهم ووطنييهم، دون اعتبار لاختلافاتهم، وذبحهم على مذبح واحد.

وإذا كان الأمران الأول والثاني خارجين عن الإرادة، فإن الأمر الأخير هو إيضاح ميداني بالألوان لبيئة العمل السياسي الموحد لأطياف أهل السنة، ولو إلى حين، وإذا كان الخوف من الغرق جدير بأن يحوِّل ركاب السفينة الجانحة إلى فريق إنقاذ واحد، فإن الفناء أمام الآلة العسكرية والسياسية الأمريكية أجدر به أن يحقق ذلك.

لقد كانت الشخصية الوطنية وسلامة الوطن والانتماء للمحيط العربي شغل الفرد السني الشاغل، لكن الحصار الداخلي الخانق الذي يواجهه أهل السنة اليوم، والحرب الأهلية غير المعلنة التي تشن ضدهم، واشتراك ميليشيات الفئات الأخرى مع جيش الاحتلال في دك مدنهم، والدور الإيراني المكشوف، ومجيء الكوريين والبولنديين والمجريين واليابانيين من وراء الحدود، هذا السيناريو بمجمله لا يبقي لمعاني المواطنة الشيء الكثير، ويختزل معنى الوطن إلى مساحة من اليابسة للعيش، ويدفع الخيارات الأيديولوجية للمُحَاصَرِينَ إلى ما وراء الحدود من جديد باتجاه عمقهم الإقليمي التاريخي.

ما ينتظر العراق علمه عند الله تعالى، قد يطول الاحتلال وقد يقصر، ولكن الاحتراب الثقافي الداخلي يبقى بوابة المحتل متى ما شاء الدخول، وطوق النجاة إذا ما اضطر إلى الخروج يومًا، وحينها سيدخل في صفقة مع من يراه أخف الضررين في طرفي النزاع الثقافي، حتى لو كان ذلك الطرف فصيلاً في المقاومة، وسيتحول ذلك الفصيل إلى «الحكومة الوطنية» المقبلة، وينقلب على رفيق الأمس، وحينها نكون قد عدنا إلى حيث بدأنا في القرن الماضي حينما قرر الإنكليز والفرنسيون «الخروج» ومنح «الاستقلال».

**لكن الاحتراب الثقافي الداخلي يبقى بوابة المحتل متى ما شاء الدخول، وطوق النجاة إذا ما اضطر إلى الخروج يومًا**

قضيتنا نحن أهل السنة، – وبخلاف غيرنا – هي أننا إما نكون أو لا نكون. شخصيتنا سبيكة ثنائية المعدن، العمل بأحدهما ينتج ثقافة عرجاء؛ جرَّبها جيلان على نحو ثمانية عقود فوصلوا بها إلى درك التخلف العالمي.

مدرسة أهل السنة اليوم ـ وكما في أية مدرسة سياسية ـ أمام مشكلة أطياف سياسية، هذه الأطياف منها ما يقف عند النص ( في هذه الحالة بشقيه: الرسالة السماوية ومكارم الأخلاق العربية)، وهو ما يقابل النظرية أو الأيديولوجية عند الأحزاب المعاصرة، وهذا طيف أقرب للمرجعية الفكرية. ومنها أحزاب سياسية ميدانية تلتقي في برامجها مع النظرية في مساحات وتبتعد عنها في مساحات أخرى. ونوع ثالث يصطدم مع النص ولا ينتسب إلى مدرسته في الواقع إلا انتساباً «بيولوجيًا».

لا يختلف المسلمون عبر تاريخهم أن السياسة هي فـن الممكن، وفـي كثير من الأحيان هـي فن الإنقاذ. وإذا كان ركاب السـفينة الجانحـة يدركون تماماً أنهم أمام وفاق قسـري مدته تعادل بُعْدهم عن اليابسة على الأقـل، وإلا فالغرق هو خيارهم الآخر والوحيد، فإن الذين يذبحـون اليوم على مذبح المارينـز أمام وفاق قسـري إلـى حيـن انجـلاء هـذه الغمـة، وإلا فالفناء السياسـي هو خيارهم الآخر، إلا من أراد منهم الغرق الاختياري في المستنقع الأمريكي.

إذا كان الاقتبـاس السياسـي فـي حكومـة عمر بن الخطـاب (رضي اللـه عنه)، هو أولى صـور المرونة التي مارستها دولة الحضارة العربية الإسلامية الفتية، فإن في العملية السياسـية في الغرب اليـوم طرفاً ثالثاً فـي معادلـة صنع القـرار يتوسـط مؤسسـتي النظرية والتنفيـذ، وقـد قطـع هذا الفن أشـواطاً بعيـدة تحت مسـمى معاهد الفكر التي تكون ظهيراً ولكن مستقلاً للمؤسسـات السياسـية، التي تسـتفيد غير ملزَمة من عصارة بحوثها ودراساتها في رسم سياستها واستقراء الواقع من حولها. وتنتسب هذه المعاهد إلى مدارس أيديولوجية وتتخصص في إثراء نظرياتها؛ لتكون هي العمق الفكري للمؤسسـة التنفيذيـة، وهمزة الوصل بين شخصيتي المنظّر والمنفّذ.

وتلعـب هـذه المعاهـد أدواراً مهمـة فـي تحديـد مواقع نقطة الوسـط في الطيف السياسـي، فهي – أي المعاهـد– أقـرب للمثالية منهـا إلى الواقـع، وهو ما يحافـظ علـى قـرب أحـزاب الوسـط مـن النظرية، ويضـع حـدّاً لحالـة التفلـت الأيديولوجـي. كما أن لهذه المعاهد المسـتقلة المقدرة على إبداء آراء ونشر دراسات يتعذر على المؤسسة التنفيذية القيام بها.

نحـن أكثر حاجة من الغرب إلـى معاهد فكر تعمِّق مفاهيـم حضارتنـا، وتؤطِّـر أيديولوجيتنـا، وترمِّـم العلاقـة بين طرفـي معادلتنا، وتعيد صياغة قاموسـنا السياسي بلغة سهلة يفهمها رجل الشارع.

الأزمـات محطـات مهمـة فـي تاريـخ الشـعوب لا تُفوّت، فيها تُرَاجع القناعـات وَتُصْنع المعجزات، وفيها يُعَاد رسـم الشخصية الجماعية للمجتمع، وهي فرص نادرة الحدوث.

الْخَطْـب ليـس يسـيرًا، ولكـن الأمـم إمـا متبوئـة لقمـة الرفاهيـة راكنة إلى الدعة في فترات الاسـتقرار ومتراخية في مضمار البناء الفكري، وإما متبوئة لقمم الفكـر في أوقات الضيـق ومتراجعة عن رغد العيش، والأمل في الله ثم في سـنن المجتمعات هو أن تكون الأخيرة من نصيب أجيال اليوم.

## معلومات إضافية

**تطور النظام الدولي**:

**المرحلة الأولى ١٦٤٨م - ١٩١٤م**:

تبدأ هذه المرحلة من معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ م والتي أنهت الحروب الدينية، وأقامت النظام الدولي الحديث المبني على تعدد الدول القومية واستقلالها، كما أخذت بفكرة توازن القوى كوسيلة لتحقيق السلام، وأعطت أهمية للبعثات الدبلوماسية، وتنتهي هذه المرحلة بنهاية الحرب العالمية الأولى.

كانت الدولة القومية هي العامل الوحيد في السياسة الدولية، ولم تعرف هذه المرحلة المنظمات الدولية ولا المؤسسات غير القومية مثل الشركات العالمية، وكانت قوة الدولة مرادفة لقوتها العسكرية، وكانت أوروبا تمثل مركز الثقل في هذا النظام. أما الولايات المتحدة الأمريكية فكانت على أطراف هذا النظام، ولم يكن لها دور فَعَّال نتيجة سياسة العزلة التي اتبعتها.

كانت الفكرة القومية هي الظاهرة الأساسية في النظام الدولي فهي أساس قيام الدول وأساس الصراع بين المصالح القومية للدول، ولم تكن الظواهر الأيديولوجية الأخرى قد ظهرت بَعْدُ؛ مثل الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية وغيرها.

**المرحلة الثانية ١٩١٤م - ١٩٨٩م**:

تبدأ هذه المرحلة من الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية الثمانينيات من القرن الماضي، وقد تميزت هذه المرحلة بتعدد أطراف النظام الدولي نتيجة استقلال عدد من دول العالم الثالث وظهور مجموعة كبيرة من الوحدات السياسية في المجتمع الدولي، ومنها المنظمات الدولية والإقليمية وبروز الشركات العالمية وحركات التحرير، وقد اتجه النظام بعد الحرب العالمة الثانية نحو نظام الثنائية القطبية بين المعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفيتي والمعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، وتوسعت قاعدة النظام الدولي ومراكز القوى خارج أوروبا.

وخلال هذه المرحلة ظهرت الأيديولوجية كإحدى أهم الظواهر في المجتمع الدولي، وأخذ الانقسام داخل النظام الدولي يأخذ طابع الصراع الأيديولوجي بين المعسكر الشرقي الاشتراكي والمعسكر الغربي الرأسمالي، وتبع ذلك ظهور عدد من الظواهر مثل الحرب الباردة والتعايش السلمي والوفاق الدولي وغيرها.

**المرحلة الثالثة ١٩٨٩م - ... :**

تبدأ هذه المرحلة من نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن الماضي وحتى الآن، ويطلق عليها النظام الدولي الجديد وأخيراً العولمة، وتعود بدايات شيوع هذا المفهوم إلى حرب الخليج الثانية (١٩٩٠م) حيث بدأت الدعاية الأمريكية بالترويج لهذا المفهوم رغم وجود محاولات سابقة في هذا المجال.

لقد اتجه النظام الدولي خلال هذه المرحلة نحو أحادية القطبية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، وظهور الولايات المتحدة كقائدة للمعسكر الرأسمالي المنفردة بقيادة العالم، وتمدد دورها وهيمنتها على الأمم المتحدة والشرعية الدولية. وقد شهدت هذه المرحلة زيادة عدد الدول نتيجة الانقسامات والانشقاقات التي حدثت في كثير من الدول، وفي الوقت نفسه يشير النظام خلال هذه المرحلة إلى أنماط تفاعلات جديدة تركز على الجوانب الثقافية والحضارية وتوزيع مصادر القوة والنفوذ بصورة جديدة تعطي دوراً أكبر للمنظمات غير الحكومية، مما جعل البعض يطلق عليه اسم النظام العالمي الجديد بدلاً من النظام الدولي الجديد.

وقد عكست هذه المرحلة تعدد وتنوع المشكلات والتحديات التي تواجه الدول خاصة في نصف الكرة الجنوبي، وما رافقها من تنامي اتجاهات التطرف والصراعات الداخلية وظهور أنماط من التصادمات والاحتكاكات في النظام القيمي والفكري. ويرتبط مفهوم العولمة بهيمنة النشاط الاقتصادي الرأسمالي وتحول العالم إلى سوق استهلاكية كبرى لمنتجات الشركات الصناعية الكبرى. أما في المجال الثقافي فالأمر يظهر وكأنه انتصار لثقافة الشمال المتقدم على الجنوب المتخلف، وفرض الذوق والثقافة الأمريكية والغربية على العالم.

**تداعيات أحداث سبتمبر على النظام الدولي «بتصرف» بقلم: د. نظام بركات. الجزيرة نت. الأحد ١٨/ ٨/ ١٤٢٥ هـ - الموافق٣/ ١٠/ ٢٠٠٤ م.**

### الدولة الصفوية:

يمثل تاريخ الدولة الصفوية في إيران منعطفاً خطيراً في تاريخها، فبقيامها اتخذت إيران المذهب الشيعي الاثنا عشري مذهباً رسميًا، وكان لهذا التحول آثاره البعيدة في تاريخ إيران خاصة وتاريخ العالم الإسلامي عامة.

وينتسب الصفويون إلى أحد شيوخ التصوف يسمى «صفي الدين الأردبيلي» عاش في الفترة من (٦٥٠هـ= ١٣٣٤م)، وكان رجلاً نشيطاً دائب الحركة والسعي؛ استطاع أن يجذب الأتباع حوله في فارس، وأن ينشر بينهم المذهب الشيعي.

نجح أبناء الأردبيلي وأحفاده في نشر المذهب، والتمكين له بين المحبين والمريدين، وصارت لهم قوة وقدرة على المشاركة في الأحداث السياسية في المناطق التي يقيمون بها، وتحولوا من أصحاب دعوة وشيوخ طريقة إلى مؤسسي دولة لها أهدافها السياسية والمذهبية.

وكانت الأجواء التي تعيشها إيران في أواخر القرن التاسع الهجري من التمزق السياسي وشيوع الفوضى أفضل مناخ استغله الصفويون لجذب المزيد من الأنصار، والتطلع إلى قيام دولة تدين بالمذهب الشيعي لأول مرة في تاريخ الإسلام.

### المولد والنشأة:

ولد إسماعيل الصفوي في (٢٥ من رجب ٨٩٢هـ=٢٥ من يوليو ١٤٨٧م)، وعاش بعد وفاة أبيه في كنف «كاركيا ميرزا» حاكم «لاهيجان» الذي كان محباً للصفويين، ظل إسماعيل الصفوي ٥ سنوات تحت سمع هذا الحاكم وبصره، حتى شبّ قوياً محباً للفروسية والقتال، قادراً على القيادة والإدارة.

وفـي أثنـاء هذه الفترة كانت الدولة تعيش فترة صراعات بين أفراد أسـرة آق قويونلو التي كانت تحكم فارس آنذاك، وهو ما استغله أنصار الصفويين، وأمّروا عليهم إسماعيل الصفوي، وكان صغيراً لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، لكنه كان مهيأ للقيادة والزعامة بفضل الرعاية التي أحاطه بها حاكم لاهيجان.

تمكن إسماعيل الصفوي وأنصاره من خوض عدة معارك ضد حكام بعض المناطق في إيران والتغلب عليهم، وتسـاقطت في يده كثير من المدن الإيرانية، وتوج جهوده بالاسـتيلاء على مدينة «تبريز» عاصمة آق قويونلو، ودخلها دخول الفاتحين، ثم أعلنها عاصمة لدولته.

وبدخـول إسـماعيل مدينة تبريز تم تتويجه ملكاً على إيران، ولقبه أعوانه بأبي المظفر شـاه إسـماعيل الهادي الوالي، وذلك في سنة (٩٠٧هـ = ١٥٠٢م) وأصدروا العملة باسمه.

**إسماعيل الصفوي ودولته.. في الميزان (في ذكرى مولده: ٢٥ من رجب ٨٩٢هـ)**
**أحمد تمام ؛ إسلام أون لاين ؛ حدث في العام الهجري.**